تفسير سورةُ الفرقان

من آية (1) إلى آية (6)

اللقاء الأول

مقدمات السورة

أسماء السورة: سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفرقان).

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ هِشامَ بنَ حَكيمٍ يقرأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رَسولِ اللهِ -ﷺ-، فاستمعتُ لقِراءتِه، فإذا هو يقرأُ على حُروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ الله -ﷺ-، فكِدتُ أُساوِرُه في الصَّلاةِ- يُمسِكُ برِدَائِه-، فتصبَّرتُ حتى سَلَّمَ، فلبَّبتُه بردائِه-أَخذْتُ بِمَجَامِعِ رِدائِه مِن عُنُقِه وجَرَرْتُه به-، فقلتُ: مَن أقرأَك هذه السُّورةَ التي سمِعتُك تقرأُ؟ قال: أقرأَنيها رسولُ الله -ﷺ-. فقلتُ: كذَبْتَ؛ فإنَّ رَسولَ الله -ﷺ- أقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله -ﷺ-، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها! فقال رسولُ الله -ﷺ- لهشامٍ: اقرأْ، فقرأَ، فقال رسولُ الله -ﷺ-: كذلك أُنزِلَت. ثمَّ قال: اقرأْ يا عُمَرُ، فقرأتُ، فقال رسولُ الله -ﷺ-: كذلك أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ، فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه)) أخرجه البخاري

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

في سورةِ (الفرقان) سجدةُ تلاوةٍ، في قولِه تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) [الفرقان: 60].

فضل سورة الفرقان أنها واحدةٌ من السور التي حملت اسمًا من أسماء القرآن الكريم، وسُميت بهذا الاسم للتدليل على تفريق القرآن بين الحق والباطل.

بيان المكي والمدني:

سورةُ الفُرقانِ مكِّيَّةٌ، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك.

مقاصد السورة:

مِن أبرزِ المقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ الفُرقانِ:

1- التَّنويهُ بالقُرآنِ، وإثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنَزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ دلائِلِ صِدقِه، والتَّنويهُ بالذين اتَّبَعوه.

2- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه، والتَّسْريةُ عنه.

قال ابنُ عاشور: (أُقيمَت هذه السُّورةُ على ثلاثِ دَعائِمَ: الأُولى: إثباتُ أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودلائِلِ صِدقِه، ورِفعةِ شأنِه عن أن تكونَ له حُظوظُ الدُّنيا، وأنَّه على طريقةِ غَيرِه مِنَ الرُّسُلِ، ومِن ذلك تَلقِّي قَومِه دَعوتَه بالتَّكذيبِ. الدِّعامةُ الثَّانيةُ: إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، والإنذارُ بالجزاءِ في الآخرةِ، والتَّبشيرُ بالثَّوابِ فيها للصَّالِحِينَ، وإنذارُ المشرِكينَ بسُوءِ حَظِّهم يومَئذٍ، وتكونُ لهم النَّدامةُ على تكذيبِهم الرَّسولَ، وعلى إشراكِهم واتِّباعِ أئمَّةِ كُفْرِهم. الدِّعامةُ الثَّالِثةُ: الاستِدلالُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلْقِ، وتَنزيهُه عن أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ، وإبطالُ إلهيَّةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زَعَموه مِن بنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى. وافتُتِحَت في آياتِ كُلِّ دِعامةٍ مِن هذه الثَّلاثِ بجُملةِ: تَبَارَكَ الَّذِي إلخ).

موضوعات السورة:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الفُرقانِ:

1- تمجيدُ اللهِ تعالى والثَّناءُ عليه، ووَصفُه بصِفاتِ الإلهيَّةِ والوَحدانيَّةِ فيها، واتِّخاذُ المشرِكينَ مع ذلك آلهةً مِن دُونِه تعالى مخلوقةً مَوصوفةً بالعَجزِ.

2- حِكايةُ بَعضِ أقوالِ المشرِكينَ وشُبُهاتِهم حولَ القُرآنِ وحولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الرَّدِّ عليهم، ودَحْضِ شُبُهاتِهم.

3- المقارنةُ بيْنَ مَصيرِ المشرِكينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم، وبينَ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمؤمِنينَ.

4- ذِكرُ جانِبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم.

5- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِنَ المشرِكينَ مِن تَطاوُلٍ عليه، وتَكذيبٍ له.

6- الحديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

7- عَرضُ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ، وأخلاقِهم، وعبادتِهم لرَبِّهم، ودُعائِهم له، وتضَرُّعِهم إليه.

من المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمة سورة النور: ذكر اليوم الآخر والبعث بعد الموت وأنَّ ذلك من خصوصيات الإله الحق:

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور قوله تعالى: ﴿... وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ [النور: 64].

- وجاء ذلك عند الحديث في افتتاحية سورة الفرقان عن العجز المطلق لآلهتهم المزعومة ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: 3]. فالله جلَّ جلاله المتفرد بالإماتة والإحياء والنشور والحساب والجزاء. مصطفى مسلم

من المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمة سورة النور: توقير رسول الله -ﷺ- وتعظيمه

جاء ذلك في خاتمة سورة النور في مظهرين:

أ- عدم انصراف المؤمن بحضرة رسول الله -ﷺ- إلا بإذنه، وذلك لبيان الجانب القيادي في شخصه، ولضبط الأمور وتنظيمها في حياة المؤمنين.

ب- وعدم مناداته باسمه المجرد ولا بكنيته؛ وإنما ينادى بلقب الرسالة ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: 63]. عن ابن عباس قال: "كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيه -ﷺ-، فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله".

وجاء توقير رسول الله -ﷺ- في افتتاحية سورة الفرقان في مظهرين أيضاً:

أ- وصف رسول الله -ﷺ- *بصفة العبودية* المضافة إلى الله تعالى، وهذه الصفة يوصف بها رسول الله -ﷺ- في أشرف المقامات وأقربها، وفي مقام النصرة وإبراز الحجة، والقيام بالمهمة.

ب- عالمية رسالة رسول الله -ﷺ- ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

وهذه ميزة لم يعطها أحد من الأنبياء والمرسلين غيره كما صحَّ في الحديث " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... كانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً...مصطفى مسلم

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿1﴾

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) أي: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتت بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ ببيانِه بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ. موسوعة التفسير

- لا إله إلا المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديراً وتدبيرا المتعالي بعظمته ومجده، الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا.
- "تبارك" وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة. روائع القرآن
- "الفرقان" لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد والحلال والحرام. روائع القرآن

وقوله: (نَزَّلَ الْفُرْقَانَ): قال ابن عثيمين: دَلالةٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ، ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن عُلُوٍّ؛ وإذا كان اللهُ نَزَّلَ الفُرقانَ، فإنَّ هذا يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ تبارك وتعالى.

(لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) أي: لِيَكونَ محمَّدٌ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، يحَذِّرُهم عذابَ اللهِ إن لم يُخلِصوا له العبادةَ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: وقولُه: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ... على القولِ بأنَّه إخبارٌ عن عَظَمةِ اللهِ، وتوفُّرِ كَمالاتِه؛ فيكونُ المقصودُ به التَّعليمَ والإيقاظَ، ويجوزُ مع ذلك أنْ يكونَ كِنايةً عن إنشاءِ ثَناءٍ على اللهِ تعالى؛ أنشأَ اللهُ به ثَناءً على نفْسِه كقولِه: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ [الإسراء: 1].

تَبَارَكَ فِعلٌ مختَصٌّ بالله تعالى لم يُستعمَلْ في غَيرِه، فلا يقالُ لغيرِ الله: (تَبارَك).

كلمةُ تَبَارَكَ لا تُستعمَلُ إلَّا للهِ بلَفظِ الماضي، وقد ذُكِرَت في هذه السُّورةِ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ تَعظيمًا للهِ تعالى، وخُصَّتْ مَواضُعها بذِكْرِها؛ لِعِظَمِ ما بعْدَها:

الأوَّلُ: ذِكْرُ الفُرقانِ، وهو القُرآنُ، المشتمِلُ على معاني جميعِ كُتبِ اللهِ.

والثَّاني: ذِكْرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُخاطَبةُ اللهِ له فيه.

والثَّالثُ: ذِكْرُ البُروجِ، والشَّمسِ والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، ولولاها -بعْدَ اللهِ- لَمَا وُجِدَ في الأرضِ حيوانٌ ولا نَباتٌ. الدرر السنية

قال الرازي: لما قال تعالى أولًا: تَبَارَكَ ومعناه كثرةُ الخيرِ والبَرَكةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَه أمرَ القرآنِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القُرآنَ مَنشأُ الخيراتِ، وأعمُّ البَرَكاتِ.

قال الشنقيطي: وأيضًا فإسنادُه تَبَارَكَ إلى قولِه: الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ، يدُلُّ على أنَّ إنزالَه الفُرقانَ على عبدِه مِن أعظَمِ البَرَكاتِ والخَيراتِ والنِّعَمِ التي أنعَمَ بها على خَلقِه.

مَا زاحم القرآن شيئاً (إلا باركهَ)، وَلا ضِيقا (إلا وَسعه)، وَلا ظلمة (إلا آنارها)، وَلا وِحدة (إلا آنَسها).

قال ابن حيان: فافتتَح هذه السُّورةَ بأنَّه تعالَى مُنَزَّهٌ في صفاتِه عن النَّقائصِ، كثيرُ الخيرِ، ومِن خَيرِه أنَّه نَزَّلَ الفُرقانَ على رسولِه مُنْذِرًا لهم؛ فكانَ في ذلك إطماعٌ في خَيرِه، وتحذيرٌ مِن عِقابِه.

قال ابن باديس: أنَّ هذا الربَّ المنْعِمَ المتفضِّلَ القُدُّوسَ: هو الذي أنزلَ هذا الفرقانَ، فإذا أردتَ أن تَرقَى في درجاتِ الكمالِ، وتظفرَ بأنواعِ الإنعامِ، وتُزَكِّيَ نفْسَك الزَّكاءَ التامَّ؛ فعليك بهُدى هذا الفرقانِ، فهو بساطُ القُدُسِ، ومِعراجُ الكمالِ، ومائدةُ الإكرامِ.

قال ابن باديس: لَمَّا سمَّى اللهُ كتابَه الفُرقانَ، عَلِمْنا أنَّه به يُفرَقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ، وأهْلِ هذا وذاك. فهو الحَكَمُ العَدلُ، والقَولُ الفَصلُ بيْنَ كلِّ متنازعينِ يدَّعي كلٌّ منهما أنَّه على الحَقِّ فيما هو عليه مِن عَقدٍ أو قَولٍ أو عمَلٍ، فما تقابَلَ حقٌّ وباطلٌ، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ إلَّا وفي هذا الكتابِ الحكيمِ ما يَفرُقُ ما بيْنهما. وإنما يتفاوتُ النَّاسُ في إدراكِ ذلك منه على حسَبِ ما عندَهم مِن قوةِ عِلمٍ، وصِدقِ

بصيرةٍ، وحُسنِ إخلاصٍ، فعلينا -إذَنْ- أن يكون أوَّلُ فزَعِنا في الفَرقِ والفَصلِ إليه، وأن يكون أوَّلُ جُهدِنا في استجلاءِ ذلك مِن نصوصِه ومَراميه، مستعينينَ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والعمليَّةِ على استخراجِ لآليه، فإذا حكَمَ قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكنَّا مع ما حكَمَ له، وفارَقْنا ما حكَم عليه؛ فالله سمَّاه الفرقانَ لِنَعلمَ أنَّه فارِقٌ بنفْسِه، ولِنَعملَ بالفَرقِ به، ولا يَكمُلُ إيمانُنا بأنَّه الفرقانُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ.

وقال البِقَاعي: (نزَل مفَرَّقًا بحسَبِ المصالحِ؛ فسُمِّيَ لذلك فُرقانًا، ولأنَّه الفارقُ بيْن ملتبِسٍ؛ فلا يدَعُ خفاءً إلَّا بيَّنه، ولا حقًّا إلا أثبته، ولا باطلًا إلَّا نفاه ومحَقَّه).

قال ابن عثيمين: فكما أنَّه فُرقانٌ بذاتِه يَفرُقُ، فإنَّ مَن كان مِن أهلِه ولازَمَه وعَمِلَ به، أُوتِيَ هذه الصِّفةَ، وصار له تَفريقٌ بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لِقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال: 29]

قال ابن باديس: لَمَّا جَعَلَ تعالى غايةَ تنزيلِ الفُرقانِ أنْ يكونَ عبْدُه نذيرًا، اقتضى ذلك أنَّ نِذارتَه تكونُ بالقُرآنِ؛ .... فعلينا -إذَنْ- أن نَعلَمَ أنَّ القرآنَ هو كتابُ النِّذارةِ والهدايةِ، فنستخرجَ أصولَها وفُنونَها مِن آياتِه، وهذا حظُّ العِلمِ؛ وأن يكونَ اهتداؤنا في أنفُسِنا وهديُنا لغيرِنا به، وهذا حظُّ العمَلِ، وهما رُكنا الإيمانِ.

كما قال تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا [الكهف: 1].

وقوله: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)، كما قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف: 158].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)) رواه البخاري

قال ابن عثيمين: نستفيدُ مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ التربويَّةِ: أن تتأكَّدَ وتزدادَ محبَّتُنا لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان عبدًا لله، قائمًا بإبلاغِ الرِّسالةِ، وإنذارِ الخَلقِ.

قال ابن عثيمين: فضْلُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيثُ كُلِّفَ الرِّسالةَ إلى جميعِ الخَلقِ؛ لأنَّ هذا دَليلٌ على فضْلِه، وأنَّه أهلٌ لهذه المهمَّةِ العظيمةِ؛ فلو أَرسلتَ إنسانًا لِيُصلحَ بيْن شخصينِ فهذا دليلٌ على فضْلِه، لكنْ لو أرسلتَ إنسانًا لِيُصلِحَ بيْن طائفتينِ أو أُمَّتَينِ فهذه زيادةُ فضلٍ؛ ولذلك لا يُرسَلُ لهذه المهمَّةِ الأخيرةِ إلَّا مَن هو جديرٌ بها، فكَوْنُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ لجميعِ الخَلقِ دَليلٌ على فَضلِه؛ حيث حُمِّلَ الرِّسالةَ إلى جَميعِ الخَلقِ.

وفي قولِه: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث اقتصَرَ في وصْفِ الرَّسولِ هنا على النَّذيرِ دونَ البشيرِ، كما في قولِه: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا [سبأ: 28]؛ لأنَّ المقامَ هنا لتَهديدِ المشركينَ؛ إذ كذَّبوا بالقُرآنِ وبالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكان مُقْتضيًا لذِكْرِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ.

الدرر السنية

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ﴿2﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: تكلَّمَ اللهُ سُبحانَه وتعالى في هذه السُّورةِ في التَّوحيدِ والنبوَّةِ وأحوالِ القيامةِ، ثم خَتَمها بذكرِ صفاتِ العبادِ المخلِصينَ الموقِنينَ، ولما كان إثباتُ التوحيدِ يجبُ أنْ يكونَ مُقَدَّمًا على الكُلِّ؛ لا جَرَم افتتحَ اللهُ هذه السُّورةَ بذلك، فقال

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: وهو اللهُ الذي له وحْدَه سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، يصَرِّفُ شُؤونَهما ويدبِّرُهما وجميعَ ما فيهما. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: فذكَرَ اللهُ سُبحانه وتعالى إنزالَ الفُرقانِ، وهو تشريعٌ وتَنظيمٌ، ثمَّ أعقَبَه بقَولِه: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ إشارةً إلى أنَّه يجبُ العمَلُ بما جاء في هذا الفرقانِ؛ لأنَّه جاء مِن مالكِ السَّمواتِ والأرضِ، والمالِكُ له حَقُّ التصرُّفِ في مملوكِه، بأنْ يُشَرِّعَ له ما شاء، ويُنَظِّمَ له ما شاء، وهذه هي الفائدةُ مِن قَولِه: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ بعْدَ قَولِه: الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ، فأتى بالتَّشريعِ أوَّلًا، أو بدُستورِ التَّشريعِ كما يقولون، ثمَّ أتى بعْدَ ذلك بعُمومِ المُلكِ؛ لأنَّه عزَّ وجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَ أن يكونَ ما شَرَعه حتمًا على المملوكينَ.

كما قال تعالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [فاطر: 13].

(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) أي: ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه وَلدًا؛ لا عيسى، ولا عُزَيرًا، ولا الملائكةَ، ولا غيرَهم مِن خَلقِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [الإخلاص: 3].

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) أي: ولم يكُنْ لله شريكٌ في مُلكِه وسُلطانِه كما يزعُمُ المشركون. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) [سبأ: 22].

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) أي: وأوجَد اللهُ كلَّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، فأتقَنَه وهيَّأه لِما يَصلُحُ له، وجعَلَه مُحْكَمًا، لا تفاوُتَ فيه ولا خَللَ، على ما أراد سُبحانَه بحِكمتِه. موسوعة التفسير

قال ابن عطية: (تقديرُ الأشياءِ: هو حَدُّها بالأمكنةِ والأزمانِ والمقاديرِ، والمصلحةِ والإتقانِ).

- فتقدير الله الأشياء على وجهين: أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة.

❍ونحن إذا تأملنا حديث القرآن عن التقدير، لوجدنا هذا التقدير بادياً في معالم الخلق كلها؛ فالتقدير بادٍ في خلق السماوات، وباد في خلق الأرض وفي خلق، الإنسان على الأرض وفي رزقه وفي حياته وفي مماته.

كما -قال عز وجل-: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ من التقدير: أي جعل لكل شيء قدرًا في ذاته وصفاته وفعله وأجله، وكل ما يتعلق به؛ قال النبي -ﷺ-: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» صحيح مسلم.

فهدى: أي هدى كل مخلوق إلى ما يناسبه، فهدى الإنسان إلى الخير والشر، والأنعام إلى مصالحها وعلَّمها أسباب بقائها؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50].

فالتسليم والإذعان لحكم الله، والرضا بما قضاه هو تسليم بالربوبية، واستمساك بالعبودية، فالعبد الصالح لا يشغب على سيده، ولا يسخط بحكمه، فهو يعلم أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، وإن كان ذلك الخير مستورًا عن إدراكه وحدسه.

❁ومن وصل إلى هذه الدرجة فقد وصل إلى حقيقة الإيمان؛ حيث ترسَّخ في يقينه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه

❁من تمام الإيمان بالقدر: أن يأخذ الإنسان بالأسباب، ويسعى في مصالحه الدنيوية، ويسلك الطرق الصحيحة الموصلة إليها، فيضرب في الأرض ويسعى لطلب الرزق؛ فإن أتت الأمور على ما يريد حمد الله، وإن أتت على خلاف ما يريد تعزى بقدر الله.

✉ومن ثمرات الإيمان بالقدر على هذا النحو: يثمر سكون القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال، وترك التحسر على ما فات، ويورث الإنسان الشجاعة، والإقدام، وطرد اليأس، وقوة الاحتمال.

❁إذا تأملت هذا وآمنت به علمت ضعف عدوك وقلة حيلته وأنه مخلوق لله هو وما يصنع وما يدبر، فعلق قلبك بالخالق.

✋ولهذا يجد المؤمنون بالقضاء والقدر راحة، وطمأنينة لا يجدها غيرهم ممن لا يؤمنون بقضاء الله وقدره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿3﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: لَمَّا بيَّن كَمالَه وعظَمتَه وكَثرةَ إحسانِه، وكان ذلك مُقتَضيًا لأن يكونَ وحْدَه المحبوبَ المألوهَ المعظَّمَ، المفرَدَ بالإخلاصِ وحْدَه لا شريكَ له؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بُطلانَ عبادةِ ما سِواه، فقال

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي: واتَّخذ المشرِكون من دونِ اللهِ معبوداتٍ مِن الأصنامِ وغَيرِها لا تَستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ مخلوقةٌ، بل منها ما هو مَصنوعٌ ومنحوتٌ بأيدي المشرِكين. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) [الحج: 73].

وقال سُبحانَه: (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات: 95، 96].

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ أن تدفَعَ عن نفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لنَفسِها نفعًا. موسوعة التفسير

(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ إماتةَ حَيٍّ، ولا إحياءَ مَيِّتٍ، ولا بَعْثَه بعدَ مَوتِه. موسوعة التفسير

والتَّنصيصُ على قولِه: وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا؛ لبَيانِ عجْزِهم عمَّا هو أهْوَنُ مِن هذه الأمورِ مِن دفْعِ الضَّرِّ وجلْبِ النَّفعِ؛ للتَّصريحِ بعَجْزِهم عن كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ على التَّفصيلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الإلهَ يجِبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك. وفيه إيذانٌ بغايةِ جَهْلِهم وسَخافةِ عُقولِهم، كأنَّهم غيرُ عارفينَ بانتفاءِ ما نُفِيَ عن آلهتِهم مِن الأمورِ المذكورةِ، مُفْتَقِرون إلى التَّصريحِ بذلك. الدرر السنية

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿4﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عثيمين: لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يعودُ إلى التَّوحيدِ؛ انتقَلَ إلى ما يعودُ إلى الرِّسالةِ؛ وذلك لأنَّ الشَّهادةَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ) أي: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه محمَّدٌ، وليس هو مِن عندِ اللهِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [ص: 4].

(وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) أي: وأعان محمَّدًا على اختِلاقِ هذا القُرآنِ أُناسٌ ذَوو قُدرةٍ وكفايةٍ مِن غَيرِ قَومِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحل: 103].

(فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) أي: فقد أتى الكُفَّارُ بظُلمٍ وكَذِبٍ ومَيْلٍ عن الحَقِّ، حينَ وصَفوا القُرآنَ بغيرِ صِفتِه، ورَمَوُا النبيَّ بالكَذِبِ على اللهِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: هذا القَولُ منهم فيه عِدَّةُ عَظائمَ:

منها: رَميُهم الرَّسولَ -الذي هو أبَرُّ النَّاسِ وأصدَقُهم- بالكَذِبِ، والجُرأةُ العَظيمةُ.

ومنها: إخبارُهم عن هذا القُرآنِ -الذي هو أصدَقُ الكَلامِ وأعظَمُه وأجَلُّه- بأنَّه كَذِبٌ وافتِراءٌ.

ومنها: أنَّ في ضِمنِ ذلك أنَّهم قادِرون أن يأتوا بمِثلِه، وأن يضاهيَ المخلوقُ النَّاقِصُ مِن كُلِّ وجهٍ الخالِقَ الكامِلَ مِن كُلِّ وجهٍ، بصفةٍ مِن صِفاتِه، وهي الكلامُ.

ومنها: أنَّ الرَّسولَ قد عُلِمت حالتُه، وهم أشَدُّ النَّاسِ عِلمًا بها؛ أنَّه لا يكتُبُ ولا يجتَمِعُ بمَن يكتُبُ له، وقد زعموا ذلك.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿5﴾

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا) أي: وقال الكُفَّارُ: هذا القُرآنُ عِبارةٌ عن أكاذيبِ الأُمَمِ الأوَّلينَ وقَصَصِهم المسطَّرةِ في كُتُبِهم، استنسَخها منهم محمَّدٌ. موسوعة التفسير

قال الحلبي: (اكْتَتَبَهَا: الافتِعالُ هنا يجوز أنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكِتابتِها، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان أمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتُبُ، ويجوز أنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ، مِن الكَتْبِ: وهو الجَمْعُ، لا مِنَ الكتابةِ بالقلَمِ).

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [الأنفال: 31].

(فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أي: فهذه الأساطيرُ التي اكتَتَبها محمَّدٌ تُقرأُ عليه في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه؛ ليَحفَظَها. موسوعة التفسير

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿6﴾

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَل القُرآنَ المشتَمِلَ على الأسرارِ -كالإخبارِ بالأمورِ الماضيةِ والمستَقبَلةِ- هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، ولا يخفَى عليه شَيءٌ. موسوعة التفسير

مُناسَبتُها لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بكُلِّ شَيءٍ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن عَلِم استِخفافَ غَيرِه به وكان قادِرًا عليه، عاجَلَه بالأخذِ- أُجيبَ مَن كأنَّه قال: فما له لا يُهلِكُ المكذِّبين له؟ بقَولِه -مرَغِّبًا لهم في التوبةِ، مشيرًا إلى قُدرتِه بالستَرِ والإنعامِ، ومبيِّنًا لفائدةِ إنزالِه إليهم هذا الذِّكرَ مِن الرُّجوعِ عمَّا تمادت عليه أزمانُهم مِن الكُفرِ وأنواعِ المعاصي-.

(إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) أي: إنَّ اللهَ لم يَزَلْ يستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها ويرحَمُهم، ومِن رحمتِه بهم أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، ويَقبَلُ منهم التَّوبةَ. موسوعة التفسير

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

قال ابن تيمية: لأنَّ فيه مِن الأسرارِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ أنزله، فذِكرُه ذلك يُستدَلُّ به تارةً على أنَّه حَقٌّ مُنزَّلٌ من اللهِ؛ لِكَونِه تضمَّنَ مِن الأخبارِ عن أسرارِ السَّمَواتِ والأرضِ والدُّنيا والأوَّلينَ والآخِرينَ، وسِرِّ الغيبِ، ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ..... وذلك كإخبارِه بالمستقبَلاتِ فوقعت كما أخبَرَ، وكإخباره بالأُمَمِ الماضية بما يوافِقُ ما عندَ أهلِ الكتابِ مِن غيرِ تعلُّمٍ منهم، وإخبارِه بأمورٍ هي سِرٌّ عندَ أصحابِها، كما قال: وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا [التحريم: 3] إلى قوله: نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ [التحريم: 3]؛ فقولُه: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ استِدلالٌ بأخبارِه.

قال الطيبي: قُلْ يا محمَّدُ: ليس هذا مِن افتِرائي، ولا هو مُمْلًى عليَّ، بلْ مُنزَّلٌ مِن عندِ مَن يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في بواطِنِكم مِن الدَّهاءِ والمكْرِ؛ لأنَّكم تَعلَمون عِلْمًا يَقينًا أنَّ هذا ليس مِن قَبيلِ الافتراءِ، ولا هو مِن الأساطيرِ؛ لأنَّه أعجَزَكم عن آخِرِكم بفَصاحَتِه، وأنَّه تضمَّنَ أخبارًا عن المغيَّباتِ، وأسرارًا لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ غرَضَكم الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُجَرَّدُ العِنادِ؛ ويُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وإقحامُه بيْنَ كَلامِهم، فسُبحانَه ما أرحَمَه وما أجَلَّه؛ حيث أمهَلَكُم ولم يُعاجِلْكم بالاستئصالِ لهذه العظيمةِ! فإذَنْ في قولِه: إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا معنى التَّعجُّبِ.

قال السعدي: مع إنكارِهم للتَّوحيدِ والرِّسالةِ؛ مِن لُطفِ اللهِ بهم أنَّه لم يَدَعْهم وظُلْمَهم، بل دعاهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ إليه، ووَعَدَهم بالمغفِرةِ والرَّحمةِ إنْ هم تابوا ورَجَعوا، فقال: إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا أي: وَصْفُه المغفِرةُ لأهلِ الجَرائِمِ والذُّنوبِ إذا فَعَلوا أسبابَ المغفِرةِ، وهي الرُّجوعُ عن مَعاصيه، والتَّوبةُ منها. رَحِيمًا بهم؛ حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ وقد فَعَلوا مُقتَضاها، وحيثُ قَبِلَ تَوبتَهم بعْدَ المعاصي، وحيثُ مَحا ما سَلَف مِن سَيِّئاتِهم، وحيثُ قَبِلَ حَسَناتِهم، وحيثُ أعاد الرَّاجِعَ إليه بعْدَ شُرودِه، والمقبِلَ عليه بَعدَ إعراضِه- إلى حالةِ المطيعينَ المنيبينَ إليه.

قال المراغي: وفى هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذه الذُّنوبَ مع بُلوغِها الغايةَ في العِظَمِ مَغفورةٌ إن تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصِلةٌ إليهم بَعْدَها؛ فلا يَيأَسوا منها بما فَرَط منهم.

(إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّه لم يَزَلْ يصفَحُ عن خَلقِه ويرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بعَفوِه، يقول: فلأنَّ ذلك مِن عادتِه في خَلقِه يمهِلُكم أيُّها القائلونَ ما قلْتُم مِن الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلْتُم مِن الكُفرِ).

وقال ابنُ كثير: (دعاءٌ لهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلمَه عَظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه).

وقال البِقاعي: (إِنَّهُ كَانَ أزلًا وأبَدًا غَفُورًا أي: بليغَ السَّترِ لِما يريدُ مِن ذنوبِ عبادِه؛ بألَّا يعاتِبَهم عليها، ولا يؤاخِذَهم بها. رَحِيمًا بهم في الإنعامِ عليهم بعْدَ خَلقِهم؛ برزقِهم، وتركيبِ العُقولِ فيهم، ونصْبِ الأدلَّةِ لهم، وإرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكتُبِ فيهم، ولإمهالِهم في تكذيبِهم، أي: فليس لإمهالِهم ووعْظِهم بما نزَّله إليهم سببٌ إلَّا رحمتُه وغفرانُه وعِلمُه بأنَّ كتابَه صَلاحٌ لأحوالِهم في الدارين).

كما قال تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ [الأنفال: 38].

وقال سُبحانَه: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر: 53].